رافائيل

لألفونس دي لامرتين

تكاد تكون رواية رافائيل أبلغ ما جادت به قريحة لامرتين المبدع لانه أودع فيها كل عواطف نفسه وخوالج فؤاده . فقد عشق وتوله . وكان عشقه وتولهه أشبه بأشعة الوحي التي لا تنير ما حولها فقط بل تخلق جواً يمتد مع الزمن فيستضيء به كل الذين يشعرهم . لان تتيمه كان عفاً . وهيامه طاهراً نقياً . وهذا الضرب من الحب هو قيثارة العواطف السامية . وشعلة تلهب الروح وترفعها كدخان البخور الى السماء التي هبطت منها . وتسمو بها الى الخلود الذي منه مبدأها واليه معادها

ولما كانت هذه الرواية تحت الترجمة رأينا أن ننقل من أوائلها نبذة يصف بها لامرتين حبيبته جوليا التي صادفها في الفندق ولم يكن بعد قد تعرف اليها ولا خاطبها بكلمة . قال :

كانت جالسة وعلى رأسها ركن من الشال تتقي به رطوبة الليل ، وهي متهالكة على نفسها قد أمالت عنقها على كتفها اليسرى ، وأغمضت عينيها . فشحب وجهها وتنكرت أساريرها ، وغاصت في فكرة صامتة ، فبدت كأنها تمثال الموت، ولكن الموت الذي يجذب ويبعد النفس عن مشاعر الآلام البشرية ، ويحملها الى ربوع الضياء ، تحت أشعة الحياة الحقيقية

وقد احدثت قدماي صوتاً على اوراق الكرم اليابسة ، ففتحت عينيها اللتين كانتا بلون البحر الصافي . وهما لوزيتا الشكل ، ذابلتان من ضعف الجفون . تحيط بهما أهداب حريرية سود طويلة الكحل الطبيعي . الذي تعمد الشرقيات الى تقليده بتكحيل عيونهن ، ليزدنَ في شدة سحرها ، وليمنحن فتورها قوة وذبولها مضاء

وكانت نظرات هاتين العينين كأنها منبعثة من مكان سحيق ، لم ارَ لها مثيلاً في عين انسانية اخرى ، فتُشبه تماماً نيران الكواكب التي تسعى اليك لتمسك في لياليك ، والتي تُنقل من السماء من بعد شاسع لا يُدرك له مَدى

ويتوسط وجهها انف يوناني ، يتصل بخط لا إلتواء فيه بجبهة مرتفعة منكمشة ، كأنها مضغوطة بفكرة قوية ، وكانت شفتاها رقيقتين منخفضتين قليلاً من طرفيهما بثني ، تحفره عادة يدُ الحزن ، واسنانها من عروق اللؤلؤ لا من العاج ، تماثل اسنان فتيات الشواطىء البحرية الرطبة ووجهها بيضي قد تناوله الهزال حول الصدغين وتحت الفم ، فهو والحالة هذه ، أشبه بهيئة مجسمة للفكر، لا مسحة لمخلوق بشري ، يعبر عن ذبول خفي ، يتراوح بين فتور الالم وفتور الهيام ، فلا يتسنى للنظر ان ينحرف عنه ، دون ان يحمل صورته في سودائه

وكانت هذه المخلوقة رؤية لداء نفسي مُضْمَر تحت مظهر ابدع جمال يحلم به انسان رقيق العواطف دقيق الشعور

ألقيتُ عليها السلام باحترام كلي، واسرعت الخطاء في الممرّ الممتد امامها . وكأن هيئتي الرزينة وعينيَّ المطرقتين تسألها العفو والمغفرة ، لإزعاجي اياها عن غير عمد

فما وقع نظرها عليَّ ، ورأتني مقترباً منها ، الصبغت وجنتاها الشاحبتان بلون احمر خفيف فدخلت غرفتي وقد اصابتني رعدة لا ادري ماهيتها

وبعد دقائق قليلة نهضت من مكانها ، ودخلت النزل وهي تلقي على نافذتي نظرة لامبالاة فيها ولا اكتراث . وفي الايام التالية كنت اشاهدها في الحديقة وفي الفناء ، وفي السهول والجبال والوديان وعلى صفحات البحيرة . لكن محادثتها لم تخطر لي ببال ، بل لم تدفعني الجرأة الى الافضاء اليها بكلمة سوى السلام ، فكانت ترده اليَّ بذهول محزن وتعاود سيرها ، كما اداوم انا طريقي ، دون ان يفكر احدنا بالآخر

ومع ذلك كنت أشعر في مساء اليوم الذي لا اراها فيه ، بأني حائر النفس حزين القلب ، فكنت انحدر الى الحديقة دون قصد ولا غاية ، فأمكث فيها على الرغم من المطر وبرد الليل ، وعيناي معلقتان بنافذتها ، وكان يشق عليَّ ان اعود الى غرفتي دون ان يكتحل ناظريَّ برؤية خيالها يموج بين الستر ، او ان تختطف أذني نغمة من التي توقعها على البيانو ، او ان اسمع رنة صوتها العذب الممزوج بلحن غريب ساحر

وكانت الغرفة التي تقضي فيها ساعات المساء ملاصقة لغرفتي ، لا يفصلها عنها سوى باب ضخم من خشب البلوط مقفل بمزلاجين ، فكان يتسنى لي سماع وقع اقدامها وحفيف ثوبها ، وحركة صفحات الكتاب التي تقلبها انامله ، وكان يخيل اليَّ في بعض الاحيان اني اسمع صوت تنفسها

وقد وضعتُ في بادىء الامر ، الطاولة التي كنت اكتب عليها بلصق ذلك الباب ، دون ان يكون لي مأرب من ذلك فشعرت بعدئذٍ بأني اقل وحدة من ذي قبل ، لا سيما عند ما طفقتُ أنصت الى تلك الحركات الخفيفة التي تكتنفني ، فكنت اتصور اني اعيش برفقة عشير ، مع تلك الشخصية التي كانت تملأ ايامي كلها من غير ان اشعر

وصفوة القول : لقد كان لي كل افكار الحب ومشاغله ، ومبادراته واستدقاقاته ، قبل ان يخطر لي ببال اني حب مستهام ، فلم يكن العشق يبدو لي في اشارة معينة ، او في نظرة خاصة ، او في اقرار بيِّن ، او في ظرف خارجي ، ليتسنى لي والحالة هذه التوقي والتحرّز ، بل كان شبيهاً بتلك الابخرة الوبائية غير المنظورة ، المتصاعدة من الآجام ، فتملأ الفضاء الذي يحيط بي ، وتعمُّ الضياء الذي يكتنفني ، والفصل المختصر الذي اجتازه ، وتنتشر في وحدة حياتي ، وفي التقرّب الخفي بيني وبين تلك الشخصية ، التي تبدو لي وحيدة ايضاً ، وفي تلك التجوالات

الطويلة المدى ، التي لا تبعدني عنها ، الاّ لكي تجعلني اشعر بشكل اوضح ، بتلك الجاذبية الطائشة التي تقرّبني منها ، وفي ثوبها الابيض الذي كنت ألمحهُ من بعد بين اشجار الجبال ، وفي شعرها الاسود الذي كان هواء البحيرة ينشرهُ على حافة الزورق ، وفي وقع خطواتها على الدرج ، وفي الضياء المنبعث من نافذتها ، وفي أنين أرضية غرفتها الخشبية الخفيف عند ما تطأها اقدامها ، وفي صرير قلمها على القرطاس عند ما تكتب ، وفي سكون ليالي الخريف الطويلة التي تحييها وحيدة بالقراءة او بالكتابة او بالتأمل ، وهي على قيد خطوات مني ، واخيراً في سحر ذلك الجمال الخيالي ، الذي تأملته طويلاً دون ان اراه ، والذي استبينه عند ما أغمض عينيّ ، فيظهر لي من وراء الجدران ماثلاً أمامي كأنه شفّاف قد خرج من مادّته ، ليبدو لبصيرتي وبصري في آنٍ واحد . ولم تكن هذه العاطفة التي أشعر بها لتمتزج بعجلة مجازفة ، ولا بفضول يحملني على اختراق ستر تلك العزلة ، وازالة ذلك السدّ الواهي الذي يحول بيني وبينها ، فقد خاطبت نفسي قائلاً : «ماذا يعنيني من أمر هذه المرأة المريضة القلب او الجسم ، التي جمعتني بها الصُدف في جبال بلاد غريبة ؟»

وبعد ذلك انتقدت على الاقل ، بأني نفضت غبار قدميّ ، لأني لم اكن اريد ان ارتبط في الحياة بأدنى صلة للروح او الشعور ، لاسيما جنوح القلبّ واستسلامه ، فكان مقتي للحب شديداً ، لاني لم أعرف تحت هذا الاسم سوى تقلّبه وتلوّنه . وطيشه وزيّفه ، ودنّسه ورجسه ، ذلك اذا استثنيتُ حبي لانطونين ، الذي لم يكن الاّ عاطفة أخّاذة ، فاتنة ، سريعة الزوال ، وزهرة سقطت من غصنها قبل ان يتضوّع أريجها ويفوح طيبها

ومع ذلك من تكون هذه المرأة ؟ هل هي كائن مثلي ام شهاب من الشهب الحية التي تخترق سماء تصوراتنا ، دون ان تترك اثراً سوى ما تخلّفهُ في العين من الخطاف سريع للبصر ؟ وهل هي من وطني او من وطن ناءٍ ، من احدى جزائر الشرق او خط الاستواء ، حيث لا يمكنني اللحاق بها ؟ فاكون قد عبدتها اياماً لأبكيها دواماً ، وهل قلبها خالٍ ليجيب عن خفقان قلبي ؟ وهل مما يسلّم بهِ العقل ان هذا الجمال قد قطع مراحل الحياة ، ووصل الى هذا النضوج الذي يمسّ الافول ، دون ان يضرم في طريقهِ نار الحب في قلبٍ وقعت عليهِ انظاره ؟ وهل لها ابٌ او امٌ او اخوات او اخوة ؟ وهل هي متزوجة ؟ وهل لا يوجد في العالم رجل قد نأى عنها غاضباً لاسباب غامضة ، لكنهُ يحيا في فؤادها كما تحيا في فؤاده ؟

كنت اردد كل هذه الاسئلة على نفسي ، لأبعد عنها هذا الاستهواء القهري المثبط للعزيمة الذي كنت اجده عذباً لذيذاً ، فأترفع عن الاستيلاء عنها لاني كنت اربأ بنفسي عن استطلاع طالع الغير ، فكنت اجد أليق بي ان اترك روحي تهيم في المجهول ، لانها تستشعر من ذلك راحة وهناء

القاهرة جورج نيقولاوس